القديس اوغستينوس

وناموس النشوء والتحوُّل

القديس اوغستينوس من اعظم احبار القرون الاولى المسيحية ومن اعظم اقطاب الكنيسة اللاتينية واسع المعرفة كثير التبحر في اللاهوت والعلوم الدينية ولهُ فيها مصنفات كثيرة يرجع اليها علماء الدين في التعليم والاستشهاد واهمها كتابهُ في تفسير سفر التكوين الذي بسط فيهِ آراءهُ الفلسفية وطبقها على التعاليم الدينية وسماهُ « سفر التكوين بالمعنى الحرفي [١] » ومن يطالعهُ يخيَّل لهُ انهُ يطالع مصنفاً لعلماء هذا العصر

عاش هذا الحبر في اواخر الرابع واوائل الخامس (٣٥٤—٤٣٠) وكان اسقفاً على هيبون (من سنة ٣٩٥ الى ٤٣٠) من اعمال الجزائر وآراؤهُ الفلسفية التي يقول بها علماء هذه الايام دُفنت في خزائن رجال الدين ورجال الدين انفسهم يجهلونها بدليل انهُ كلما ظهرت حقيقة علمية وكان ظاهرها يخالف الدين بمعناهُ الحرفي رموا مكتشفها وناشرها بسهام التقريع واتهموهُ بالمروق من الدين وهذا شأنهم مع كل علماء الطبيعة ولو رجعوا الى ذلك الحبر النابغة وهو حجتهم في التعاليم الدينية لعرفوا خطأهم ورجعوا الى الصواب واجتهدوا اجتهادهُ في تطبيق العلم على الدين

واني لا ادعي الشرف باكتشاف هذه الكنوز من مصنفاتهِ ولكني اطلعت على شذرات منها في مجلة الاخبار الطبية للدكتور كابانس وهو حجة في التاريخ ينقب عن كنوزهِ المدفونة في خبايا الازمنة وقد طالع تلك المصنفات على كثرتها واستخرج منها كنوزاً نشرها في مؤلف خاص ونشر نتفاً منها في مجلتهِ ننقلها عنهُ لتكون نوراً للمفكرين وعبرةً للمكابرين

مهما تقلبت الآراء في نشوء المادة فانها لا تخرج عن احد امرين لا ثالث لهما اي ان المادة اما ان تكون ازلية او لا وبعبارة اخرى ان النشوء اما ان يكون لهُ بداية او لا

فالفلاسفة الاقدمون يزعمون ان المادة ازلية الاَّ ان النشوء فيها حادث ولذلك قالوا بوجود سبب واجب الوجود لذاتهِ ومشترك في الازلية مع المادة وهو وان يكن مستقلاً عنها فقد ايقظها من سباتها الازلي واكسبها قوة الحركة . وفي هذا من التكلف والاشكال ما

(١) التكوين بالمعنى الحرفي الكتاب ١٢ من مجلد ٤ من مجموعة القديس اوغستينوس ترجمة سينولر الرينساوية بادارة روول و باركدوك وغاربن وشركاهم طبعة ١٨٦٦

يوجب عدم التسليم به لانهُ لا يعقل وجود كائنين مشتركين في الازلية ويكونان مستقلين احدهما عن الآخر ، والمتأخرون ومنهم الماديون يخطئونهم ولا يقولون بازلية المادة وحدوث النشوء فيها لانهم لا يفصلون المادة من خواصها النشوئية ويرجعون بوجودها وجود قوة فيها عملت على نشوئها منذ الازل اي ان النشوء ازلي في مادة ازلية

اما الرأي الثاني اي ان المادة حادثة ونشوءها حادث فيقضي بوجود سبب اولي خارج عن المادة اي سبب خالق لها وللقوات التي فيها وهو لا ينافي حقائق النشوء ، واذا سلّمنا به بقي تاريخ النشوء واحداً ، والظاهر ان احبار الكنيسة في القرون الاولى لم يروا فيه ما ينافي الايمان وان القديس اوغسطينوس كان من اكبر مؤيديه

ذهب القديس اوغسطينوس الى ان الله خلق المادة اولاً ووضع فيها قوة النمو وجعل لها نظاماً للارتقاء فظهرت بعد مرور القرون على صورها الحاضرة فاتفق بذلك مع دارون صاحب مذهب النشوء الحديث

وذهب ايضاً الى ان الكائنات الحية بعد ان بلغت حدها من النمو تسلحت بوسائل الدفاع للمحافظة على كيانها وقامت حياة القوي منها على نفقة الضعيف وكان ذلك داعياً لتحولها بنظام عجيب بعضها الى البعض الآخر فاثبت بذلك ناموس الانتخاب الطبيعي

وذهب ايضاً الى ان المادة هي اصل لكل الموجودات الآلية وغير الآلية وانها لا تنفصل عن القوة المودعة فيها فتسير بالنظام الموضوع لها سيراً قانونياً ومطرداً بحيث ان كل ما في الكون من التركيب والتنويع هو نتيجة تلك القوة فاتفق بذلك مع الماديين

وقد توسع في هذا البحث وطرقهُ من كل ابوابه ولم يستثن الانسان والنفس من هذا الناموس وكل ذلك بعبارات واضحة وجلية كما سترى

قال بختنر ان « القوة خاصة لازمة للمادة وان المادة لا تنفصل عن القوة » وهذه الحقيقة يعتبرها العلماء ويعدونها من اعظم الاكتشافات العصرية وقد شرحها بختنر في كتابه « القوة والمادة » شرحاً وافياً واستشهد باقوال كثير من العلماء الذين اتخذوها قاعدة لبحثهم وقال « انها حقيقة من ابسط الحقائق ولكن ما اقل الذين يعرفونها وما اكثر الذين يجهلونها فلا مادة بدون قوة ولا قوة بدون مادة » . ويدعي الماديون ان هذه الحقيقة هي منهم ولهم وان لا تعليم غير تعليمهم يتفق معها . ولو اطلع بختنر على كتابات القديس اوغسطينوس لجعلها في راس الشواهد التي استشهد بها لاسيما وانها سبقت اقوال الماديين بقرون عديدة

قال القديس اوغسطينوس في شرح الآية الاولى الواردة في سفر التكوين « في البدء خلق الله السماء والارض » « ان معنى ذلك هو خلق المادة الاولى والنواميس التي تفعل بها وان ما حصل بعد ذلك فبطول الزمن وبالطريقة الطبيعية بدون ان يكون لاي شيء آخر خلق مباشر »

واما عن ارتباط المادة بالقوة فقال

« ان مبادئ النواميس التي تحدث فعل العناصر توجد في العناصر نفسها وقد خلقت معها ولكل من العناصر خصائص تولّد النتائج التي يمكن ان تصدر من تلك العناصر وهي لا تفعل ابداً خارجاً عنها [1] »

فالخلق الاولي بحسب القديس اوغسطينوس كان مضمراً وكل ما جاء في الازمنة كان نتيجة سنّة سنّها الله منذ البدء ويتضح ذلك مما يأتي قال

« ان الخليقة في البدء كانت كجرثومة وضعت في العالم لكي تكون مبدأ لكل الخلائق المعدة للظهور كلٌّ في حينه وفي ما يلي من القرون [2] »

« عمل الله السماء والارض كمادة قابلة للتحسن [3] »

« يراد بالارض الخاوية الخالية وبالظلام المادة غير الكاملة المعدة لتكوين المواد المختلفة في مستقبل الازمنة [4] »

« انما في اصل الازمنة خُلق العالم وفي الوقت نفسه اودعت فيه الجراثيم التي يجب ان تخرج منها النباتات والحيوانات المختلفة في الازمنة الآتية [5] »

« وبالنتيجة ان ما تجريه الخلائق الآن من الحركة لتقضي وظائفها المعينة لما هو نتيجة للمبادئ الاولى وحالة لنمو الجراثيم التي بثها الله فيها حينما خلق الكون [6] »

« فالنظام الالهي اذاً يقوم بداءةً بخلق الاصل الذي منهُ تولدت النباتات والاشجار وبعبارة اخرى خلق السبب الذي يكسب الارض مبدأ الخصب · وفي هذا المبدإ واريد ان اقول

(١) القديس اوغسطينوس تفسير سفر التكوين كتاب ٦ فصل ٧ فقرة ٢٣ وجه ٣٦٣

(٢) كتاب ٦ فصل ٥ فقرة ٧ وجه ٢١٥

(٣) " ٥ " ٥ " ١٦ " ٢٠٣

(٤) " ١ " ٩ " ١٥ " ١٤٩

(٥) " ٦ " ١ " ٢ " ٣١٣

(٦) " ٤ " ٢٣ " ٥١ " ١٦٧

في هذه الاصول قد ترك لعمل الزمان كل ما يتلو ذلك [1] »

وهو يعتبر التاريخ الموسوي كبيان لتغيرات المادة على توالي القرون ويعتبر ان الاعمال الحالية التي تمت في ستة ايام ليست نتيجة عمل مباشر لله تم في ستة اوقات كل وقت منها ٢٤ ساعة بل في سلسلة « معقولة من السبب الى النتيجة [2] » . ويذهب في تفسيره سفر التكوين الى ان الكتاب لا يقول بالخلق من العدم بل يبعد كل تصور به لان الآية الدالة على ذلك واضحة العبارة حيث تقول « لتنبت الارض نباتاً . . ولتفض المياه زحافات » وتفسيره لايام الخليقة الستة يجيز اعتبارها ادواراً متعاقبة وهي في احوال النمو قال

« ان الاقرب احتمالاً هو ان السبعة الايام الاولى رغماً عن مشابهة الاسم والعدد تدل على تغيير يختلف في الوقت عن التغيير الحالي وتفسر بتغيير داخلي في الكائنات تدل فيه كلمات مساء وصباح وظلام ونور وليل ونهار على تعاقب يختلف عن التعاقب المحدود بدورة الشمس [3] »

فهذا هو المبدأ الطبيعي وهو نفس ما يقول به علماء الطبيعة وقد سبقهم اليه القديس اوغستينوس بقرون كثيرة ويظهر انه كان راسخاً في ذهنه لانه يرد كثيراً في كتاباته قال

« ان النهار والليل لم يستعملا هنا الا لكي يعين احدهما المادة بصفاتها الخصوصية (المادة في حال النمو) ولكي يعين الثاني المادة العديمة الهيئة (المادة بغير حال النمو) . اي ان الليل يدل على المادة العديمة الهيئة التي يجب ان تصدر منها الكائنات . والمساء والصباح لا يدلان على توقيت محدود يتوالى بذهاب واياب بل على حد يقف فيه نمو مادة و يبتدئ نمو اخرى [4] . . اذا وجهنا نظرنا الى الظروف الاولى للاعمال التي استراح الله منها في اليوم السابع لا يجب ان ننظر الى حركة الشمس اليومية بل الى الكائنات التي كونها الله لتحديد سير الوقت والى تكوينه كل شيء دفعة واحدة ووضعه في الوقت نفسه نظاماً عاماً ليس باقسام من الوقت بل بارتباط النتائج بالاسباب . فالمادة العديمة الصورة انما لم تخلق بسلسلة من الاوقات بل بنظام معقول خلقت فيه اولاً وجعلت قابلة لاتخاذ الصور المختلفة [5] »

(1)	كتاب	٥	فصل	٤	فقرة	٢	وجه	٢٠٢
(2)	«	٥	«	٢٣	«	٤٦	«	٢١٢
(3)	«	٤	«	١٨	«	٣٢	«	١٩٠
(4)	«	٣	«	١٨	«	٣٢	«	١٩٠
(5)	«	٥	«	٥	«	١٢ و١٣	«	٢٠٢

اذا كان ارتباط القوة بالمادة هو الفاعل في نموها وارتقائها وظهور انواعها المتباينة وجب ان يكون الانسان ايضاً خاضعاً لهذا الناموس لانهُ يشمل كل الكائنات ولم يستثنهِ القديس اوغسطينوس بل قال بتدرجهِ في النمو والارتقاء ومما قالهُ في هذا الصدد

« هل ان الله عند ما خلق كل شيء صنع الانسان بالمبدإ كما صنع النبات والارض قبل ان يظهرا ؟ فاذا كان كذلك فيكون قد صنع الانسان كجرثومة في قلب الطبيعة تاخذ بمرور الزمن هذه الهيئات التي يقتضي بها اليوم حياتهُ بعمل الخير او الشر على نفس الطريقة التي صنع بها النبات قبل ان ينبت من الارض فنما مع الزمن[1] »

وقال ايضاً وهو يخشى ان لا يفهمهُ الناس حق الفهم

« اذا قلت ان الانسان لم يكن في الخلق الاولي المشترك نامياً نمو البالغ وكان اقل من طفل مولود حديثاً واقل من جنين في جوف امهِ واقل من الجرثومة المنظورة التي يولد منها . يتوهمون ان ذلك تخيُّل مما فوق الطبيعة ولكني اقول ذلك بصرف النظر عن كل تخيل طبيعي لاني اجرد البزور من قشورها فالانسان لم يكن حتى ولا ذريرة[2] »

وقال ايضاً « في الخلق الاولي والمشترك صُنع الانسان ككائن ممكن اي كبدإ يجب ان يخرج منهُ ولم يُصنع على الحالة التي ظهر عليها اخيراً فتكوينهُ هو نتيجة الاسباب التي كانت كامنة فيها فعند ما يُقال خُلق الانسان نفهم من ذلك ان الله خلق السبب الذي يجب ان يخرج الانسان منهُ في زمن معين[3] »

ولم يقف القديس اوغسطينوس عند هذا الحد من الايضاح والوضوح بل توسَّع الى ما وراء ذلك وذهب الى ان الحياة والقوى العاقلة هي ايضاً خاضعة لهذا الناموس وسارت فيهِ سيراً تدريجياً متعاقباً فقد ورد في سفر التكوين ان روح الله كان يرف على وجه المياه ففسر هذه العبارة بما يأتي قال

« تدل هذه العبارة على ان الله عنى بالماء الخاصة الطبيعية والمبدأ المولّد للاشياء التي نرى انواعها الآن او يقصد بها الاستدلال على نوع ما على تموجات الحياة العقلية قبل ان ترتبط بغايتها[4] »

(١)	كتاب	٦	فصل	١	فقرة	١	وجه	٢١٣
(٢)	«	٦	«	١٦	«	١٠ و ١٢	«	٢١٥ و ٢١٦
(٣)	«	٦	«	١٥	«	٢٦	«	٢٢٠
(٤)	«	١	«	٥			«	١٤٧ و ١٤٨

ان ترجمة هذه الآية لا تفيد المقصود من اصلها لان الترجمة العربية تقول ان روح الله كان يرف على وجه المياه والترجمة الفرنساوية تقول ان روح الله كان محمولاً على وجه المياه واما الاصل العبراني فيفيد معنى التسخين او الدغدغة كانه يقول ان روح الله كان يسخن او يدفئ وجه المياه ولهذا يقول القديس اوغسطينوس ان هذه العبارة « تدل على نوع من الحضانة التي يجوز ان نشبها بحضانة الطيور لبيوضها [1] » الا ان كلمة البيض هنا ليست الا للتشبيه والقديس اوغسطينوس يذهب الى ان « مبادئ الحياة كانت مختلطة بالمادة وان الماء كان يحتوي على الجراثيم قبل ان يحتوي على البيوض [2] »

واما النفس فيذهب الى خلقها من جنسها وانها لم تظهر بمظهرها الا بعد ظهور الانسان قال « قبل ان تكون المادة الحية التي تفسدها الرذيلة وتجملها الفضيلة يحتمل كثيراً ان النفس كان لها مبدأ هو قوة روحية ولكنها ليست النفس ذاتها كما ان الهيكل الذي يجب ان يكون لحماً كان مادة قبل ان يصير لحماً بالفعل [3] »

« هل كانت القوة المولدة للنفس معلقة باحدى المواد التي خلقها الله في الخلق المشترك؟ وما هي تلك المادة [4] »

« لا ينكر مطلقاً ان الله يستطيع ان يعمل دفعة واحدة ما يظن انه يعمل تدريجاً فاذا كانت المادة هي مبدأ النفس الخالية من العقل فلا عبرة بكيفية الانتقال ووجب ان نعلم دائماً ان المادة هي العنصر الاولي للنفس البشرية على انه ما من احد على ما اعلم تجاسر ان يرتأي هذا الرأي الا اذا كان يعتبر النفس نوعاً من المادة [5] . اما كون مادة تتحول الى اخرى فقد قيل به مراراً كثيرة واما ان مادة في السماء او على الارض تتحول الى نفس وتصبح مادة خالدة فلم يقل احد بذلك على ما اعلم والايمان لا يساعد على القول به [6] »

اذا كانت النفس نتيجة نمو مادي وجب ضرورة ان يكون لها في سير نموها دور من الحياة خال من التعقل فقال في ذلك

(١)	كتاب	١	فصل	١٨	فقرة	٣٦	وجه	١٥٥
(٢)	«	٤	«	٣٣	«	٥٢	«	١٤٧
(٣)	«	٧	«	٦	«	٩	«	٢٢٨
(٤)	«	٧	«	٢٢	«	٣٣	«	٢٢٤
(٥)	«	٧	«	٩	«	١٢	«	٢٢٩
(٦)	«	٧	«	١٢	«	١٩	«	٢٣٠

« هل كانت النفس مدركة بالقوة وليس بالفعل ؟ ولمَ لا نسلم بان المادة التي تكونت منها النفس كان العقل كامناً فيها ككمونهِ في نفس الطفل مع كونها فيهِ نفساً بشرية[١] ؟ »

لو كانت هذه الاقوال لاحد المعاصرين لقلنا انهُ من تلامذة داروين وسبنسر واذا لخصنا آراء داروين وقابلناها بآراء القديس اوغسطينوس رأينا بينهما اتفاقاً مدهشاً رغم ما بينهما من بعد الزمن

فالتحول بحسب مذهب داروين يحصل بالانتخاب الطبيعي الذي ينتج من تنازع البقاء لان في كل تنازع تكون الغلبة دائماً للاصلح اي لمن كان في احوال وجوده اكمل تكويناً واقوى سلاحاً ويهلك بهِ الضعيف ومن كان جهاز الدفاع فيهِ اقل منعة . وقد يطرأ على الكائنات الحية بعض التغيرات في احوال معلومة فتنتقل احياناً كثيرة الى النسل وتزيد على التمادي وضوحاً وثبوتاً في الذرية فينشأ بالضرورة من ذلك انسال جديدة وهذا هو النشوء الذي يفسرهُ علماء الطبيعة بالانتخاب الطبيعي الذي تجريهِ الطبيعة بدون قصد وتعقل ويحصل كما يحصل بالانتخاب الصناعي بواسطة التربية والتلقيح . وعليهِ فكل الكائنات الموجودة الآن مما يحيا ويزحف ويسبح ويطير هو اصلح للبقاء من كل ما امكن ان يكون طبقاً لنواميس الطبيعة

والقديس اوغسطينوس في هذا المعنى فصل في كتابهِ المشار اليهِ آنفاً « سفر التكوين بالمعنى الحرفي » بعنوان لماذا الاجناس الحيوانية هي اعداء بعضها لبعض قال فيهِ

« ان الحيوانات من الفيل الى احقر دودة تبذل كل ما لها من وسائل الدفاع وكل ما عندها من طرق الدهاء لكي تحافظ على كيانها الذي يعين موضعها في النظام الذي خلقت فيهِ . وهذا الجهاد لا يظهر الاَّ عند الضرورة اي حينما تسعى لتغتني اعضاؤها على نفقة مادة الحيوانات الاخرى وهذه تدافع عن نفسها للمحافظة على حياتها او تهرب او تختبئ في المغاير . والحس الطبيعي في كل الكائنات هو مصدر قوة عجيبة منتشرة في الجسم باتحاد منتظم فيجعلهُ مجموعاً حيًّا ويحافظ على وحدتهِ ويتغلب على الجمود بنوع ان كل كائن لا ينظر الى ما يسري الى جسمهِ من الانحراف او الانحلال الاَّ ويشعر بحركة باطنية للمقاومة

« ورب معترض يقول لماذا تتقاتل الحيوانات وليس لها ذنوب تكفّر عنها ولا فضائل تكملها في المحن ؟ فاجيب ان ذلك حق لأن الانواع يعيش بعضها على نفقة البعض

(١) كتاب ٧ فصل ٧ نقرة ١٠ وجه ٢٢٨

الآخر ولا يحق لنا ان نتهم ناموساً يسمح للحيوانات ان تعيش بدون ان يأكل بعضها بعضاً لان الكائنات ما دامت موجودة لا بد ان يكون لوجودها نسبة وتناسب ونظام في المجموع وهو نظام بديع لذاته لانهُ ناموس للموازنة والنمو ومن محاسنه تجديد الحيوانات وتحويلها بعضها الى بعض الا ان الجهال يجهلونهُ وهو لا ينكشف الا بالتبحر في العلم فيصبح واضحاً للعلماء (١) »

هل اتى العلماء المعاصرون باجلى واوضح مما اتى بهِ القديس اوغستينوس في القرن الرابع من التاريخ المسيحي ؟ فاذا حذفنا من الاصل عبارة « ان الحيوانات ليس لها ذنوب لتكفر عنها ولا فضائل لتكملها في المحن » صح ان يكون لكتابهِ « سفر التكوين بالمعنى الحرفي » افضل محل بين المصنفات الحديثة وصح ان يكون هو واضع مذهب النشوء وان ينسب لهُ وليس لسواهُ. واذا وجد بينهُ وبين دارون بعض الاختلاف فهو كالاختلاف بين دارون وبعض اتباعهِ على بعض المسائل لان هذا العلم حديث الوضع ولا يزال كثير من مسائلهِ موضوع البحث والخلاف بين علمائهِ. الا ان ما يستلفت النظر ويستحق الاعتبار هو ان القديس اوغستينوس يطلق للفكر العنان ويجيز لهُ التحري في البحث عن اصل الاشياء بكل حرية وجسارة على شرط ان لا يمس التعليم بالخلق الالهي حيث يقول تعقيباً على ما سبق من التفاسير

« اذا سبق ووجد شيء مادي وروحي قابل للنمو فذلك الشيء هو عمل الله الذي عمل كل شيء (٢) »

وهذا لا يناقضهُ الماديون لانهُ سواء عندهم خلق المادة خالق او وجدت لذاتها اذ يقتصر بحثهم على القوة المرتبطة بالمادة وعلى النواميس الطبيعية التي تفعل بها

ولغير القديس اوغستينوس من اباء الكنيسة الاولين ما يتفق معهُ في كثير من نظرياتهِ الا اني اقتصرت على النقل عنهُ لما في اقوالهِ من الجلاء والوضوح ولما لهُ من المنزلة في الكنيسة الكاثوليكية ومن الشهرة الواسعة في العالم المسيحي

الدكتور

امين ابو خاطر

---

(١)	كتاب	٢	فصل	١٦	فقرة	٣٥	وجه	١٧٦
(٢)	«	٧	«	٢٧	«	٣٩	«	٣٢٦